﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: 125]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن لازِمِ الأمرِ باتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السلام؛ الأمرُ بالتزامِ خُطاه، في طريقِ الدَّعوةِ إلى مولاه

يَتَنَزَّلُ مَعْنَى هَذِه الآيَةِ مَنْزِلَةَ البَيانِ لِقَوْلِه: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾، فإنَّ المُرادَ بما أوحيَ إلَيْه مِن اتِّباعِ مِلَّةِ إبْراهيمَ هو دينُ الإسْلام، ودينُ الإسْلام مَبْنيٌّ على قَواعِدِ الحَنيفيَّة، فلا جَرَمَ كانَ الرَّسولُ ﷺ بدَعْوتِه النّاسَ إلَى الإسْلامِ داعيًا إلَى اتِّباعِ مِلَّةِ إبْراهيمَ[1].

يقول البقاعيُّ: "ولما قدّم سبحانه في هذه السورة حكايةَ كثير من استهزائهم بوعدِه ووعيدِه، وتكذيبِهم لرُسله على أبشع وجه، والتّفتير عن حرقة الحرصِ عليهم، المفضي إلى شدة التأسُّف على ضلالهم وغيرِ ذلك مما ربما أيأس منهم، فأقعدَ عن دعائهم، وأتبعه ضربَ الأمثال، ونصبَ الجدال لعامة الخلق ما يجلُّ عنِ الوصف، وختمَ باتِّباع الأبِ الأعظم، لما كان ذلك، وأمرَ سبحانه نبيّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو السميع المطيع أن يستنَّ بآثاره، ويقتدي بإضماره وإظهاره؛ فسَّر له تلك الملَّة التي أمره باتباعها بقوله: ﴿ٱدۡعُ﴾"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: ذكر صاحبُ المقاييس أنَّ: السّينَ والباءَ واللّامَ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلوٍّ إلَى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شَيْءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبِمائِها، والسَّبَلُ: المَطَرُ الجَوْدُ، وسِبالُ الإنْسانِ مِنْ هَذا؛ لِأنَّهُ شَعْرٌ مُنْسَدِلٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 325.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 279.

وقَوْلُهُم لِأعالي الدَّلْوِ: أسْبالٌ، مِنْ هَذا، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِه، والسّابِلَةُ: المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائِيَةً وذاهِبَةً، وسُمّيَ السُّنْبُلُ سُنْبُلًا لِامتِدادِه، يُقالُ: أسْبَلَ الزَّرْعُ؛ إذا خَرَجَ سُنْبُلُهُ[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: امتدادٌ إلى أسفلَ مع اتّصالٍ كالثّياب الممتدة إلى الأرض[2]، ونحوها مما يدلُّ على هذه الإطالة، وورد عند الرّاغب: السَّبيلُ: الطَّريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، قال: ﴿وَأَنْهَرًا وَسُبُلًا﴾ [النّحل: 15]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10]، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزّخرف: 37]، يعني به طريقَ الحق؛ لأنَّ اسم الجنس إذا أطلق؛ يختصُّ بما هو الحقُّ، وابنُ السَّبيلِ: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السَّبيل لممارسته إيّاه، ويستعمل السَّبيلُ لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[3].

2) ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: الحاءُ والكافُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ؛ لِأنَّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدّابَّةَ وأحْكَمتُها، ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفيهَ وأحْكَمتُهُ؛ إذا أخَذْتَ على يَدَيْه، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها؛ لِأنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهْلِ، وتَقولُ: حَكَّمتُ فُلانًا تَحْكيمًا منعته عَمّا يُريدُ، وحُكِّمَ فُلانٌ في كَذا، إذا جُعِلَ أمرُهُ إلَيْه، والمُحَكَّمُ: المُجَرَّبُ المَنْسوبُ إلَى الحِكْمَةِ[4]، والمعنى المحوريُّ لهذا الجذر: ضَبْطٌ يمنع التَّسيُّب، ويمكِّن من جَعْل الشّيء أو جريانه على ما ينبغي ويراد، كحَكَمَةِ اللّجام تضبط الدّابَّةَ، وتمنعها منَ التَّسيُّب، أي: تُمكِّنُ من إيقافها وتوجيهها حسب مرادِ راكبها، ومن ذلك الضَّبطِ استُعمل التّركيب في ضبط المركبات بعضها مع بعض، أي: مَنعها من التفكُّك والتَّسيُّب سواء كانت ماديّةً أم معنويةً[5].

والحِكْمَةُ: إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمةُ من اللّه تعالى معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومنَ الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات، وهذا هو الذي وُصف به لقمان في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]، ونبَّه على جملتها بما وصفَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(3) الراغب، المفردات: (سبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).

بها، فإذا قيل في اللّه تعالى: هو حَكيم، فمعناه بخلاف معناه؛ إذا وُصف به غيرُه، ومن هذا الوجه قال اللّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: 8]، وإذا وُصف به القرآن؛ فلتضمُّنه الحكمةَ، نحو: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: 1]، وعلى ذلك قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةُۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾ [القمر: 4 - 5]، وقيل: معنى الحكيم المحكمُ، نحو: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، وكلاهما صحيح، فإنَّه محكمٌ ومفيدٌ للحكم، ففيه المعنيان جميعًا، والحكمُ أعمُّ من الحكمة، فكلُّ حكمة حكمٌ، وليس كلُّ حكم حكمةً، فإنَّ الحكم أن يُقضى بشيء على شيء، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا[1]، والمراد بقوله: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالمقالة المحكمةِ الصّحيحةِ، وهو الدّليلُ الموضحُ للحق المزيحُ للشّبهة[2].

3) ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾: العِظَةُ: الموعظة، وعَظْتُ الرَّجلَ أعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبَّل العِظَةَ، وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوه ممّا يرقُّ له قلبُهُ، ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعظي أنتِ ودَعي موعظتي[3].

والمعنى المحوريُّ لمادَّة (وعظ): كلامٌ أو عمل يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقْدِم عليه ليتوقَّفَ عنه، كما هو واضحٌ في معنى الوعظ، وقيدُ التَّوقُّف يؤخذُ من التّذكير بالعواقب، والوعظُ: الإذكار بالخير بما يرقُّ له القلب، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ التّركيب؛ فهو بمعنى هذا الإذكار والتَّنبيه[4]، وعند الرّاغب: الوعْظُ: زجرٌ مقترن بتخويف[5].

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ هي الخطابياتُ المقنعةُ، والعِبَرُ النّافعةُ، على وجهٍ لا يخفى على المخاطَبين أنَّك تناصحُهم، وتقصِدُ ما ينفعُهم[6].

4) ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾: الجيمُ والدّالُ واللّامُ أصْلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ بابِ اسْتِحْكام الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلام، ويُقالُ لِلزِّمام المُمَرِّ: جَديلٌ، والجَدْولُ: نَهْرٌ صَغيرٌ، وهو مُمتَدٌّ، وماؤُهُ أقْوى في اجْتِماعِ أجْزائِه مِنَ المُنْبَطِحِ السّائِحِ،

(1) الراغب، المفردات: (حكم).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.
(3) الخليل، العين: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(5) الراغب، المفردات: (وعظ).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.

ورَجُلٌ مَجْدولٌ؛ إذا كانَ قَضيفَ الخِلْقَةِ مِنْ غَيْرِ هُزالٍ[1]، والمعنى المحوريُّ: امتدادُ الشّيء شديدُ الأثناء بالتفاف بعضه على بعض أوِ التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، والأعضاءِ المفتولة، والأرض شديدة وممتدة، وكل ما في القرآن من التّركيب؛ فهو من هذا الجِدال[2]، والجِدال: المفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصلُ في الجِدال: الصّراع وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصّلبة[3]، والمراد بمجادلتهم بالَّتي هي أحسن: مناظرتُهم بالطّريقة التي هي أحسنُ طرقِ المناظرةِ والمجادلة من الرّفق واللّين، واختيار الوجه الأيسرِ، واستعمالِ المقدِّمات المشهورةِ، تسكينًا لشغَبهم، وإطفاءً لِلَهبهم[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ الله تعالى نبيَّه الخاتمَ أن يسلكَ الطَّريقَ المثلى في الدَّعوة القائمةِ على الرِّفق والحكمةِ

في هذه الآية الكريمة بيانٌ واضحٌ للمنهج الَّذي انتهجه الخليلُ إبراهيم ﷺ في دعوته، كي يمتَثلَه الرَّسول ﷺ، لكونه على ملَّته وعلى حنيفيَّته؛ وهي دعوة تقوم منهجيًّا على ثلاثة أركان:

وهيَ الحِكْمَةُ والمَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ والمُجادَلَةُ بالطَّريقِ الأحْسَنِ؛ ولذا وُجِّه الأمر إليه ﷺ في هذه الآية بأن: اسلك في الدّعوة والمناظرة الطّريقَ المثلى، وهي الدّعوة بالتي هي أحسن، وليس عليك غيرُها، أمّا الهداية والضَّلال والمجازاة عليهما؛ فإلى الله سبحانه لا إلى غيره، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضَّلال لسوء اختياره، وبحال من يصير أمرُه إلى الاهتداء، لما ينطوي بين جنبيّه من الخير، فما شرعه لك في الدَّعوة هو الَّذي تقتضيه الحكمةُ، وهو كافٍ في هداية المهتدين، وإزالةِ عذر الضّالين[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).
(3) الراغب، المفردات: (جدل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 151.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 161.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

قد يكونُ الفصلُ لكمال الاتِّصال، أو لشبْهِ كمال الاتِّصال

فُصلت هذه الآية عن سابقتها، ولم تُعطف عليها؛ لغرضَيْن: أسلوبيٍّ، وموضوعيٍّ:

فأمّا الأسلوبيُّ؛ فهو كونُها آيةً إنشائيَّة، بدأت بفعل الأمر ﴿ٱدۡعُ﴾، وكون سابقتها جملةً خبريَّة، ولا تُعطف الخبريَّة على الإنشائيَّة أوِ العكس إلّا إذا آلت إحداهما إلى معنى الأخرى.

وأمّا من النّاحية الموضوعيَّة، فإنَّ الآية تُعدُّ بمنزلة البيان لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فقد جاءت مفسِّرةً لملَّة إبراهيم عليه السلام الّتي أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ باتِّباعها، فتَرْك العطف إنَّما هو لكمال اتِّصالها بما تقدَّمها من آيات.

ويمكن أن يكون سببُ الفصل: شبهَ كمال الاتِّصال أوِ المسمّى بالاستئنافِ البيانيِّ، بأن تُحمل الآية على كونها جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ فُهِمَ بعد الآية السّابقة، مُفاده: وما هي ركائز ملَّة إبراهيم عليه السلام التي أمر نبيَّه باتِّباعها؟

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿ٱدۡعُ﴾:

يخرجُ غرضُ الأمر إلى أغراضٍ مجازيَّةٍ، كالدَّوام والاستزادةِ

يقول ابن عاشور: "ومُخاطَبَةُ اللّه رَسولَهُ ﷺ بِهَذا الأمرِ في حينِ أنَّهُ داعٍ إلَى الإسْلام وموافِقٌ لأصولِ مِلَّةِ إبْراهيمَ، دَليلٌ على أنَّ صيغَةَ الأمرِ مُسْتَعْمَلَةٌ في طَلَبِ الدَّوامِ على الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ، مَعَ ما انْضَمَّ إلَى ذَلكَ مِنَ الهدايَةِ إلَى طَرائِقِ الدَّعْوةِ إلَى الدّينِ، فتَضَمَّنَتْ هَذِه الآيَةُ تَثْبيتَ الرَّسولِ ﷺ على الدَّعْوةِ، وألّا يُؤَيِّسَهُ قَوْلُ المُشْرِكينَ لَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾ [النّحل: 101] وقَوْلُهُم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النّحل: 103] وألّا يَصُدَّهُ عَنِ الدَّعْوةِ أنَّهُ تَعالَى لا يَهْدي الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِآياتِ اللّه"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 325.

نكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿ٱدۡعُ﴾:

حُذف المفعولُ دلالةً على التَّعميم، على معنى: ادعُ النّاس أو قومك، وجوِّز أن يكون المراد: افعل الدَّعوة تنزيلًا له منزلةَ اللّازم للقصد إلى إيجاد نفس الفعل، إشعارًا بأنَّ عموم الدَّعوة غنيٌّ عنِ البيان، وإنَّما المقصودُ الأمرُ بإيجادها على وجه مخصوص[1].

يُنزّلُ الفعلُ المتعدّي أحيانًا منزلةَ اللّازم للتَّعميم

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالسَّبيل:

في قوله تعالى: ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شبَّه الإسلامَ بالسَّبيل بجامع أنَّ كليهما يؤدّي إلى مقصوده، فالسَّبيل هو: الطَّريق الذي فيه سهولةٌ، وكذلك حالُ الإسلام، فحُذف المشبَّه، وأُقيم المشبَّه به مكانه، يقول ابن عاشور: وسَبيلُ الرَّبِّ: طَريقُهُ، وهو مجازٌ لِكُلِّ عَمَلٍ مِنْ شَأْنِه أنْ يُبَلِّغَ عامِلَهُ إلَى رِضا اللّه تَعالَى؛ لِأنَّ العَمَلَ الَّذي يَحْصُلُ لِعامِلِه غَرَضٌ ما: يُشْبِهُ الطَّريقَ الموصِلَ إلَى مَكانٍ مَقْصودٍ، فلِذَلِكَ يُسْتَعارُ اسْمُ السَّبيلِ لِسَبَبِ الشَّيْءِ[2].

الإسلامُ طريقٌ مستقيمٌ يوصلُ سالكَه إلى مبتغاه

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّةِ مضافةً:

في إضافة السَّبيل إلى لفظ الرُّبوبيَّة ما لا يخفى من العناية بهذا الدّين، وأنَّه دين اللّه، وهو الَّذي أرشد إليه، وهذه الإضافة تجريدٌ للاستعارة[3]، وفي ذكر لفظ الرُّبوبيَّة دون الاسم الأعظم من التَّسرية والتَّثبيت لفؤاد النَّبيِّ ﷺ ما فيه، وإضافةُ لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضميره ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريف.

لفظُ الرُّبوبيَّة يُعطي معانيَ التَّسرية والطَّمأنة والتَّثبيت

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾:

الباء للملابسة والإلصاق، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، على معنى أن تكون الحكمةُ والموعظة الحسنة ملابستَيْن لهذه الدَّعوة لا تنفكّان عنها.

لا غنًى للدَّعوة السَّديدةِ عنِ الحكمة والموعظة الرَّشيدةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 487.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 326.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ و﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾:

الدّعوةُ بالحكمة والإحسان، مؤثّرةٌ في كلّ إنسان

الأفضل أن تكون (أل) هنا الجنسيَّةَ الاستغراقيَّةَ التي تشمل صنوفَ الحكمة والموعظة الحسنة الَّتي تليق بنبيِّنا ﷺ، ويمكن على معنى آخر حملُها على العهديَّة على معنى: الحكمةِ والموعظة اللَّتَين تعرفهما في مواضع الدَّعوة.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، إمّا أن تكون حالًا من ضمير ﴿ٱدۡعُ﴾، أو متعلِّقةً به[1].

فائدةُ عطفِ الموعظة على الحكمة:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ يأتي للإشادة بالخاصِّ والعناية به

يقول ابن عاشور: وعَطْفُ ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ﴾ على ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ لأنَّها تُغايِرُ الحِكْمَةَ بالعُموم والخُصوص الوجْهيِّ، فإنَّهُ قد يَسْلُكُ بالمَوْعِظَةِ مَسْلَكَ الإقْناعِ، فمِنَ المَوْعِظَةِ حِكْمَةٌ، ومِنْها خَطابَةٌ، ومِنْها جَدَلٌ، وهيَ مِنْ حَيْثُ ماهيَّتُها بَيْنَها وبَيْنَ الحِكْمَةِ العُمومُ والخُصوصُ مِنْ وجْهٍ، ولَكِنَّ المَقْصودَ بِها ما لا يَخْرُجُ عَنِ الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ بِقَرِينَةِ تَغْيِيرِ الأُسْلوبِ[2].

نكتةُ تقييدِ الموعظة بالحسنة:

الحكمةُ لا تكونُ إلّا حسنةً

يقول ابن عاشور: وقُيِّدَتِ المَوْعِظَةُ بِالحَسَنَةِ، ولَم تُقَيَّدِ الحِكْمَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ لأنَّ المَوْعِظَةَ لَمّا كانَ المَقْصودُ مِنْها غالِبًا رَدْعَ نَفْسِ المَوْعوظِ عَنْ أعْمالِه السَّيِّئَةِ أوْ عَنْ تَوَقُّعِ ذَلِكَ مِنْهُ، وكانت مَظِنَّةً لِصُدورِ غِلْظَةٍ مِنَ الواعِظِ ولِحُصولِ انْكِسارٍ في نَفْسِ المَوْعوظِ؛ أرشد اللّهُ رَسولَهُ أنْ يَتَوخَّى في المَوْعِظَةِ أنْ تَكونَ حَسَنَةً، أيْ: بِإلانَةِ القَوْلِ وتَرْغيبِ المَوْعوظِ في الخَيْرِ، قالَ تَعالَى خِطابًا لِموسَى وهارونَ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: 43 - 44].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 327 - 328.

وأمّا الحِكْمَةُ؛ فهيَ تَعْليمٌ لِمُتَطَلِّبي الكَمالِ مِنْ مُعَلِّمٍ يَهْتَمُّ بِتَعْليمِ طُلّابِه، فلا تَكونُ إلّا في حالَةٍ حَسَنَةٍ، فلا حاجَةَ إلَى التَّنْبيه على أنْ تَكونَ حَسَنَةً[1].

فائدةُ عطْفِ قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾:

عطفتِ الآيةُ الأمرَ بالمجادلة على الدَّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنَّها من لوازمهما؛ إذ إنَّ من مقتضيات هذه الحكمة، أن يلجأ صاحبُها إلى الجدال مع خصومه إن دعته الحاجةُ إلى ذلك.

من مُقتضياتِ الحكمةِ، اللُّجوءُ إلى الجدالِ بالَّتي هي أحسن

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾:

مُخاطَبَةُ اللّه رَسولَهُ ﷺ بِهَذا الأمرِ في حينِ أنَّهُ قائمٌ به: دَليلٌ على أنَّ صيغَةَ الأمرِ مُسْتَعْمَلَةٌ في طَلَبِ الدَّوامِ على المجادلة بأسلوبها المشروع، فتَضَمَّنَتْ هَذِه الآيَةُ تَثْبيتَ الرَّسولِ ﷺ على قيامه بالجدال وعلى أسلوبه في الجدال[2].

الأمرُ يدلُّ على الدَّوامِ والاستزادةِ

نكتةُ تغايرِ النَّظم في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾:

يقول الرّازي: "ومِنْ لَطائِفِ هَذِه الآيَةِ أنَّهُ قالَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، فقَصَرَ الدَّعْوةَ على ذكر هذين القسمين؛ لأنَّ الدَّعوة إذا كانَتْ بالدَّلائِلِ القَطْعيَّةِ، فهيَ الحِكْمَةُ، وإنْ كانَتْ بالدَّلائِلِ الظَّنّيَّةِ؛ فهيَ المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ، أمّا الجَدَلُ؛ فلَيْسَ مِنْ بابِ الدَّعْوةِ، بَلِ المَقْصودُ مِنْهُ غَرَضٌ آخَرُ مُغايِرٌ لِلدَّعْوةِ، وهو الإلْزامُ والإفْحامُ، فلِهَذا السَّبَبِ لَم يَقُلْ: (ادْعُ إلَى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ والجَدَلِ الأحْسَنِ)، بَلْ قَطَعَ الجَدَلَ عَنْ بابِ الدَّعْوةِ تَنْبيهًا على أنَّهُ لا تَحْصُلُ به الدَّعْوةُ، وإنَّما الغَرَضُ مِنْهُ شَيْءٌ آخَرُ"[3].

يدلُّ الجدالُ على الإلزامِ والإفحامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 329.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 325.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 287.

فائدةُ التَّصريحِ بضمير الغائبين:

ولَمّا كانَتِ المُجادَلَةُ لا تَكونُ إلّا مَعَ المُعارِضينَ؛ صَرَّحَ في المُجادَلَةِ بِضَميرِ جَمعِ الغائِبينَ، والمُرادُ مِنْهُ المُشْرِكونَ، فإنَّ المُشْرِكينَ مُتَفاوِتونَ في كَيْفيّاتِ مُحاجَّتِهم، فمِنْهُم مَنْ يُحاجُّ بِلينٍ، ومنهم غيرُ ذلك[1].

المجادلةُ محاججةٌ، يؤمرُ بها بشروطها وآدابها

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾:

الباء للملاصقة والملابسة، أي: لتكن مجادلتك لهم ملتبِّسةً بكونها الَّتي هي أحسن.

نكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ عبَّر بالاسم الموصول لتعظيم شأنها وتفخيمِه، وجاءت جملةُ صلة الموصول اسميَّةً؛ لتفيد معنى الثَّبات والتَّوكيد على هذا النَّوع منَ المجادلة.

المجادلةُ اللَّطيفةُ مطلوبةٌ في سياق الآية

نكتةُ التَّعبير بالمفاضلةِ في ﴿أَحۡسَنُۚ﴾:

المجادلة هي مفاعلةٌ تقتضي وجودَ طرفَيْن فيها، فعُلِمَ أنَّ المَأْمورَ به أنْ تَكونَ المُحاجَّةُ الصّادِرَةُ مِنْهُ أشَدَّ حُسْنًا مِنَ المُحاجَّةِ الصّادِرَةِ مِنْهُم، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: 34][2].

كلّما كان الخطابُ بالَّتي هي أحسنُ؛ كان التَّأثيرُ أعمقَ وأمكنَ

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فُصلت هذه الجملة عن سابقتها، ولم تُعطف عليها للتَّغاير بينهما من ناحية الإنشاء والخبر، ولوقوعها تعليليَّةً بعد الجملة الأولى، فهي تعليلٌ لما ذكر أوَّلًا من الأمرين، كأنَّه قيل: اسلك في الدّعوة والمناظرةِ الطريقةَ المذكورة وما عليك غير ذلك، وأمّا حصولُ الهداية والضلال والمجازاة عليهما؛ فإلى اللّه سبحانه لا إلى غيره؛ إذ هو أعلم بمن يبقى على الضّلال، وبمن يهتدي إليه،

لا نعطفُ الخبريَّةَ على الإنشائيَّة ولا العكسَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 328.

فيجازي كلًّا منهما ما يستحقُّه[1]، وعلى هذا فيمكن أن يكون موقعُ الجملة موقعَ (الاستئناف البيانيِّ) جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: ما نتيجةُ سلوك هذه الطَّرائق في دعوتهم؟

بلاغةُ تزاحُمِ المؤكِّدات في الآية:

حظي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ بعددٍ من المؤكِّدات، منها: إنَّ، والجملةُ الاسميَّة، وضميرُ الفصل الَّذي يفيد القصر، وصيغةُ المفاضلة ﴿أَعْلَمُ﴾ وذلك لتنزيله ﷺ منزلةَ المنكرِ لشدَّة حرصه على هدايتهم، فجاءت هذه المؤكِّدات لتثبيته والتَّسريةِ عنه، بأنَّ أمرَ الهداية والضَّلال هو عند الله تعالى لا عند غيره، وإنَّما عليك البلاغُ دون النَّتائج.

تـردُ المـؤكِّـدات أحـيـانًـا لإزالـة بعـضِ مـخـاوفِ النَّفس

وقد تكون ﴿إِنَّ﴾ هنا ليست للتأكيد لوجود ضميرِ الفصل الَّذي يفيد القصرَ، وتكون قائمة مقامَ فاء التَّفريع، حيث قال فيها الشَّيخ عبد القاهر الجرجانيُّ: واعلم أنَّ مِنْ شأنِ (إنَّ)؛ إذا جاءتْ على هذا الوجه، أن تُغْني غَناء الفاءِ العاطِفةِ مثلًا، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمرًا عجيبًا، فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنفًا غيرَ مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا[2].

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة مضافًا:

لفظُ الرُّبوبيَّة، فـيـه تـسـلـيـةٌ وتـسـريـةٌ لقلب المخاطَب

وفي التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة تسريةٌ وتسلية لفؤاد النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المصلحُ والرّاعي والسَّيِّد، وفي إضافته إلى ضميره ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريف.

بلاغةُ القصْرِ بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

أفـاد الـقـصـرُ هـنـا أنَّ الـعـلـمَ بأحوال المهتدين هـو شـأنُـه ﷺ وحدَه

توسَّط ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ بين المسنَد إليه والمسنَد، فأفاد قصْرَ صفة العلم عليه ﷺ دون غيره، فهو من قصر الصِّفة على الموصوف،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 487.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 273.

وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ العلم الحقيقيَّ بالمهتدين والضّالين لله ﷻ دون غيره، ويمكن حملُه على القصرِ الإضافي على معنى أنَّ غيرَ الله يعلَمُهم أيضًا، ولكنَّ الله تعالى هو أعلمُ بهم منهم.

دلالةُ المفاضلةِ في قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾:

قد تأتي صيغةُ المفاضلة على بابها

قد تكون هذه المفاضلةُ على بابها، بألّا ينفي العلم بهم عن غيره، وإنَّما يُثبت لهم بأنَّه الأعلم، يقول ابن عاشور: والتَّفْضيلُ في قَوْلِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ تَفْضيلٌ على عِلْمِ غَيْرِه بذَلِكَ، فإنَّهُ عِلْمٌ مُتَفاوِتٌ بِحَسَبِ تَفاوُتِ العالِمينَ في مَعْرِفَةِ الحَقائِقِ، وفي هَذا التَّفْضيلِ إيماءٌ إلَى وُجوبِ طَلَبِ كَمالِ العِلْمِ بالهُدَى، وتَمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وغَوْصِ النَّظَرِ في ذَلِكَ، وتَجَنُّبِ التَّسَرُّعِ في الحُكْمِ دونَ قوَّةِ ظَنٍّ بالحَقِّ، والحَذَرِ مِنْ تَغَلُّبِ تَيّاراتِ الأهْواءِ حَتَّى لا تَنْعَكِسَ الحَقائِقُ، ولا تَسيرَ العُقولُ في بِنْياتِ الطَّرائِقِ، فإنَّ الحَقَّ باقٍ على الزَّمانِ، والباطِلُ تُكَذِّبُهُ الحُجَّةُ والبُرْهانُ[1].

وقد تكون (أفعل) هنا مسلوبةَ المفاضلة، بأن يكون المرادُ بها المبالغةَ في اختصاصه سبحانه بعلم أحوالهم دون غيره.

معْنَيا الباء و(من) في قوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾:

مجيءُ صلةِ الموصول على الفعليَّة، يفيدُ التَّجدُّدَ

الباء قد تفيد الملابسةَ والملاصقة هنا، وقد تكون للتَّعدية، و(مَن) اسم موصول بمعنى (الَّذي) وصلتُه (ضلّ)، وأفاد التَّعبيرُ بالاسم الموصول العمومَ؛ ليشمل كلَّ من كان شأنُه كذلك، ومجيء صلة الموصول على الفعليَّة يدلُّ على تجدُّد الضَّلال فيهم وعدمِ انقطاعه.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالسَّبيل:

الإسلامُ طريقٌ واضحٌ مستقيمٌ، يوصل سالكَه إلى مُبتغاه

في قوله: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شبَّه الإسلامَ بالسَّبيل بجامع أنَّ كليهما يؤدّي إلى مقصوده، فالسَّبيل هو: الطَّريق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 334.

الذي فيه سهولة، وكذلك حالُ الإسلام، فحُذف المشبَّه، وأُقيم المشبَّه به مكانَه.

نكتةُ إضافةِ السَّبيل إلى ضميرِ الرُّبوبيَّة:

في إضافة السَّبيل إلى ضمير الرُّبوبيَّة ما لا يخفى منَ العناية بهذا الدّين، وأنَّه دين الله، وهو الَّذي أرشد إليه، وهذه الإضافة تجريدٌ للاستعارة[1].

سبيلُ الله هو دينُه القويمُ، وصراطُه المستقيمُ

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عاطفة، وحسَّن العطفَ بينها وبين الجملة السّابقة التَّغايرُ والتَّقابلُ بالمعلوم (الضَّلال والهداية)، والتَّشريك بالعلم.

علمُ اللهِ لا يغيبُ عنه شيءٌ في الوجود، عن أيِّ موجود

نكتةُ إعادةِ ضمير الفصلِ مع الهداية:

يقول ابن عاشور: "وإعادَةُ ضَميرِ الفَصْلِ في قَوْلِه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لِلتَّنْصيصِ على تَقْوِيَةِ هَذا الخَبَرِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قيلَ: وأَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ؛ لاحْتَمَلَ أَنْ يَكونَ مَعْطوفًا على جُملَةِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ على أنَّه خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ غَيْرُ داخِلٍ في حَيِّزِ التَّقْوِيَةِ بِضَميرِ الفَصْلِ، فأُعيدَ ضَميرُ الفَصْلِ لِدَفْعِ هَذا الاحْتِمال"[2].

يفيدُ القصرُ بضمير الفصل أحيانًا دفعَ ما يُتوهَّم

معْنَيا (الباء) و(أل) في قوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

الباء تفيد الملابسةَ والملاصقة، وهي تفيد التَّعديةَ أيضًا، ومعنى (أل) في ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: الظّاهر أنَّها (أل) الجنسيَّة الَّتي تفيدُ علمَ الله تعالى المستغرقَ لجنس المهتدين، فتفيد علمَه ﷻ بجميع صنوف المهتدين.

الله عليمٌ بمن ضلَّ، وهو أعلمُ بالمهتدين

بلاغةُ تقديمِ علمه بالضّالّين:

قَدَّمَ ذِكْرَ عِلْمِهِ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِه على ذِكْرِ عِلْمِه بِالْمُهْتَدينَ؛ لِأَنَّ

في التَّقديم للضّالّين تعريضٌ بهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 334.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 333.

المَقامَ تَعْريضٌ بِالوعيدِ لِلضّالّينَ، ولِأنَّ التَّخْليَةَ مُقَدَّمَةٌ على التَّحْليَةِ، فالوعيدُ مُقَدَّمٌ على الوعْد[1].

نكتةُ العُدولِ في ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

الهدايةُ فطرةٌ ثابتةٌ في النفوس، والإعراض عنها حدَثٌ عارض

إيراد الضّلال بصيغة الفعل الدّالِّ على الحدوث؛ لما أنَّه تغييرٌ لفطرة اللّه تعالى التي فطر النّاس عليها، وإعراضٌ عنِ الدعوة، وذلك أمر عارضٌ بخلاف الاهتداء الذي هو عبارةٌ عنِ الثّبات على الفطرة، والجريان على موجب الدعوة، ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبئِ عنِ الثّبات[2].

بلاغةُ المقابلةِ في الآية:

علمُ اللهِ بكلِّ صنْفٍ، يكونُ به الجزاءُ من جنس العملِ

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، هنا نوعٌ من المقابلة بين هذيْن الصِّنفيْن في آخر هذه الآية الكريمة، وهي مقابلة ثلاثيَّة اشتركا فيها بثلاثة ألفاظ، فضلًا عن اشتمال المقابلة على طباق الإيجاب بين لفظتَيِ الضَّلال والهداية.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجادلة والمحاورة:

الجدالُ أشدُّ منَ المحاورة في النِّزاع، وقد لا يكون له ثمرةٌ

الجدالُ والحوار يشتركان في كونهما قد يكونان بحقٍّ أو بباطل، ولكنَّ الجدال أشدُّ في المنازعة، وأقلُّ في المعاودة والرُّجوع، وقد تقدَّم أنَّ المعنى المحوريَّ لـ(جدل): امتداد الشَّيء شديد الأثناء بالتفاف بعضِه على بعض أوِ التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، والأعضاءِ المفتولةِ، والأرض شديدة وممتدة، وكل ما في القرآن من التركيب؛ فهو من هذا الجِدال[3]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصل في الجِدال: الصّراع وإسقاط الإنسان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 333.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 490.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).

صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصُّلبة[1]، وأمّا الحَوْرُ: فهو التَّردُّد إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: 14]، أي: لن يُبعث، وحارَ الماء في الغدير: تردَّد فيه، وحارَ في أمره: تحيَّر، ومنه: المِحْور للعود الَّذي تجري عليه البكرة لتردُّده، والقوم في حَوْرٍ، أي: في تردُّد إلى نقصان، والمُحاورَةُ والحِوار: المرادَّة في الكلام، ومنه التَّحاوُر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: 1][2]، ولبيان المتفق والمفترق بين اللَّفظين يمكن القول: إنَّ الجدال والحوار يشتركان في كونهما قد يكونان بحقٍّ أو بباطل، ولكنَّ الجدال أشدُّ في المنازعة، وأقلُّ في المعاودة والرُّجوع.

(1) الراغب، المفردات: (جدل).
(2) الراغب، المفردات: (حور).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»